١٤ـ المَدينَة المُنوَّرة

لما خرج النبي من مكة المكرمة مهاجراً قال، فيما روي عن أبي هريرة «اللهم إنك قد اخرجتني من احب ارضك الي فانزلني احب أرض اليك»، فأنزله المدينة. فلما نَزلها قال «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً واسعاً». وما كان الله يخيب للنبي طلبة. واذا لم تكن للمدينة الا القليل من التاريخ قبل ذلك، فقد أصبح لها تاريخ ضخم بعد أن هاجر اليها الرسول. فقد أصبحت مهبط ما تبقى من الوحي، وصارت عاصمة الإسلام ومقر خلفاء رسول الله عقوداً بعده. واليها شدت الرحال حجاً وزيارة وتعلماً وتبركاً. فليس غريباً، والحالة هذه، أن يقال فيها «ومن خصائص المدينة انها طيبة الريح وللعطر فيها فضل رائحة لا توجد في غيرها»[١].

ولعلّ أول ما اقيم في المدينة بعد هجرة النبي اليها مسجد رسول الله. وقد روى صاحب مسالك الابصار قصة بنائه وتوسيعه، قال:

المسجد النبوي «هو موضع منبره وجوار مقبره ومقام مصلاه ودار آخرته واولاه. قدم رسول الله فنزل في علو المدينة ... فاقام أربع عشرة ليلة ... وكان يصلي حيث ادركته الصلاة، ثم انه أمر ببناء المسجد فأرسل الى ملأ بني النجار فجاءوا فقال: يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا. فقالوا: لا والله. ما نطلب ثمنه الا الى الله تعالى. وكان في المكان نخل وقبور المشركين وخرب. فأمر النبي بالنخل فقطع وبقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وصفوا النخل قبلة وجعلوا عضادتيه حجارة، وجدرانه من اللبن وكانوا يرتجزون ورسول الله معهم وهم يقولون:

اللهم انه لا خير الا خير الآخرة فانصر الانصار والمهاجره

وظل سقفه من الجريد. فلم يزد أبو بكر فيه شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. ثم غيره عثمان. فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده حجارة وسقفه بالساج. وجعل طوله مئة وستين ذراعاً وعرضه مئة وخمسين. ثم ان الوليد بن عبد الملك زاد فيه فجعل طوله مئتي ذراع وعرضه بين مئتين ومئة وثمانين»[٢].

ومع ان المدينة خسرت مكانتها كعاصمة سياسية فيما بعد، فقد ظل لها مقامها في نفوس المسلمين. وكيف يمكن ان تنقص منزلتها وفيها الروضة المباركة. وقد جاء

في المواهب اللدنية ان محمد بن حرب الهلالي أتى قبر النبي ﷺ فزاره وجلس بحذائه. فجاء اعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل ان الله انزل عليك كتاباً صادقاً وقال فيه ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما. وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي وانشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر انت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم»[٣].

وهذا ابن جبير يرحل وينتقل ويصل الحجاز لأداء الفريضة فإذا وصل المدينة غمرته سعادة كبرى. فيقول في ذلك «وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم المقدس، لزيارة الروضة المكرمة المطهرة، فوقفنا بإزائها مسلمين، ولترب جنباتها المقدسة مستلمين، وصلينا بالروضة التي بين القبر المقدس والمنبر، واستلمنا اعواد المنبر القديمة التي كانت موطىء الرسول ﷺ، والقطعة الباقية من الجذع الذي حن اليه ﷺ، وهي ملصقة في عمود قائم امام الروضة الصغيرة التي بين القبر والمنبر، وعن يمينك اذا استقبلت القبلة فيها. ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة. وكان من الاتفاق السعيد لنا ان وجدنا بعض فسحة في تلك الحال، لاشتغال الناس باقامة مضاربهم، وترتيب رحالهم فتمكنا من الغرض المقصود، وفزنا بالمشهد المحمود، وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين: صديق الاسلام وفاروقه. وانصرفنا إلى رحالنا مسرورين، ولنعمة الله علينا شاكرين. ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر الا وقد قضيناه، ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه، وتفرغت الخواطر للاياب للوطن، نظم الله الشمل، وتمم علينا الفضل والحمد لله على ما اولاه واسداه، واعاده من جميل صنعه وابداه، فهو اهل الحمد والشكر ومستحقه لا الله سواه»[٤].

وعرفت المدينة جمعاً كبيراً ممن عني بالعلم والأدب في غير عصر من عصورها. وهي الى اليوم مركز من مراكز التعليم. فالمجاورون من أهل العلم وطلابه لم ينقطعوا عنها قط. وما أكثر ما وجد فيها طلابه رغبتهم ومعلموه راحتهم.

ولو اننا أردنا ان نشير الى وقت من الأوقات خاص أو عصر من العصور متميز، لاخترنا القرن الهجري الاول (السابع) وصدر الثاني (الثامن). فمع ان العاصمة نقلت الى دمشق، فإن الأدب والعلم اينعا في الحجاز ايضاً. وهذه جماعة مالك بن انس تفقه الناس واصدقاء عمر بن ابي ربيعة يشنفون آذانهم بالشعر العذب.

فمدرسة مالك بن انس في الفقه كانت ذات أثر كبير في تطور العلوم الاسلامية ويؤخذ من أقوال الرواة والباحثين ما يلي: إن مدرسة مالك هي مدرسة المدينة. فقد كان هو الطبقة الثالثة في رواية الحديث، الذي تحدر اليه من الصحابة وبينهم عمر وعثمان وعائشة عن طريق فقهاء المدينة السبعة ومنهم ابن مسعود وابن الزبير وابن

المسيب الى الزهيري وابن سعيد. ورجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقه فيه. وكانت المسائل التي تعرض لها فقهاء المدينة اقل عدداً مما عرض له فقهاء اقطار اخرى، بسبب ما كانت عليه الامور في المدينة من بساطة وابتعاد عن التعقيد، ولتحرج المدنيين في إبداء الرأي. وكان مالك يعمل بخبر الواحد اذا صح في رواية الحديث. وقد روي عنه انه قال: لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الاساطين، وأشار الى مسجد رسول الله، فما اخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً، إلا انهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن. وكانت له قاعدة أساسها، على رواية ابن عبد البر، لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدعته، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وان كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به»[٥].

وخلاصة القول إن الأصلين اللذين اعتمدهما مالك هما قول الصحابي وعمل أهل المدينة وهما الأمران اللذان صبغا مدرسته الفقهية بتضييق الرأي اذا قورنت بغيرها من مدارس الفقه المعاصرة. وقد خلّف لنا مالك كتاب «الموطأ» وفيه أحاديث جمعها من خمسة وتسعين رجلاً كلهم مدنيون إلا ستة، وما رواه عن الستة قليل. والموطأ كتاب فقه ايضاً. وهو من اوائل الكتب التي أُلفت في الحديث والفقه. ومن آثار مالك غير المباشرة «المدونة» التي جمع فيها اسد بن الفرات تلميذ مالك ستة وثلاثين الف مسئلة حملها معه الى العراق ثم الى القيروان، حيث اصبحت أساساً للعلماء المالكيين في المغرب.

والجماعة الاخرى التي طبعت المدينة وما اليها بطابعها هي جماعة عمر بن ابي ربيعة. وقد حظيت هذه الفترة من تاريخ الحجاز الأدبي بمؤرخ معاصر هو الدكتور جبرائيل جبور الذي تحدث عنها فقال: «ولعل هذا العصر كان عصر المدينة الذهبي الذي تغنت بامجاده الشعراء وقتئذ، من جمال في الرياض المحيطة بالمدينة، الى لين ودعة في العيش، الى غنى ومال عظيم، الى تساهل من قبل رجال الحكم. ولعلك التفت الى هذه النواحي الجديدة في حياة اهلها في ذلك العصر، من اتخاذ بعضهم غرفة خاصة، جعلها نادياً، يتردد الرجال اليها، فيها من الألعاب الوان كثيرة، ومن ضروب التسلية طائفة كبيرة. ومن ترددهم ايضاً الى حفلات الغناء، فقد كانت تعقد فيها، كما رأيت، حفلات كثيرة للغناء منها عامة ومنها خاصة، كان يلبس المغنون في بعضها، كما روي، لباساً خاصاً.

«ولقد كانت هذه المواسم الغنائية التي تعقد في المدينة مقصد الكثيرين من طلاب اللهو، لا سيما من اهل مكة. ولنا، في أخبار بعض شعراء مكة وشبابها من اهل المرح واللهو، ما يفيد أنهم كانوا يقدمون خصيصاً لحضور مثل هذه الحفلات الغنائية.

«وكـان صـاحـبنا عـمـر من اكـثـر الناس تردداً لـمـثل هذه الـحـفـلات، وهـو في المدينة[٦]، وعمـر بن ابي ربيعة أشـهر من أن يعرف، ومع ذلك فمقطوعة من شعره بعد توبته، اذ وخط الشيب رأسه، فيها متعة نحب ان ننقلها الى غيرنا. قال:

تقـــول وليـــدتي لمــــا رأتني ... طربت وكنت قـد اقـصـرت حـينا
أراك اليـوم قـد أحـدثت شـوقـاً ... وهـاج لـك الهــوى داء دفـينـا
وكنت زعـمـت انك ذو عـزاء ... إذا مـا شـئت فـارقت القـرينا
بـربك هل أتـاك لهـا رسـول ... فـسـاقك أم لقـيت لهـا خـدينا
فـقلت شكا إليّ أخ مـحـب ... كـبـعض زمـاننا إذ تعلمـينا
فـقصّ عليّ مـا يلقى بهند ... فـذكـر بعض مـا كنا نسـينا
وذو القلب المـصـاب ولو تعـزى ... مـشـوق حـين يلقى العـاشـقـينا
وكم من خلة أعـرضت عنهـا ... لأجلكم وكنت بهـا ضنينا
أردت فـراقـهـا وصـبـرت عنهـا ... ولو جـنّ الفـؤاد بهـا جنونا[٧]

وممن زار المدينة العياشي المغربي الذي جاءها في القرن الحادي عشر (السابع عشر)، وأقام فيها شهوراً، ثم كتب في وصف اختباره ما يلي:

«كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف وكنا نسكن أولاً في محل نزولنا بجوار مشهد السيد اسماعيل وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس. به أخلية للوضوء وبئران وكان قيم المشهد احد أصحابنا المغاربة المجاورين وهو الذي أنزلنا به وكان يتولى اصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه. ولاه ذلك مفتي المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه وانتفع بالباقي كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة بل بغيرها.

«وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذه لا يزاحمنا فيه غيرنا لولا بعد من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا إنما نتقي ببقايا الظلال ومبادي الفيء تحت الجدران ومع ذلك يلفحنا الحر لفحاً فلا نصل الى المسجد إلا بعد مشقة ولا كنا نحتسب في ذلك خطأنا، ونغتفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع. فنمر كل يوم مراراً على باب البقيع ونسلم على أهله وندعو. ومن طلع منا على سطح المشهد أشرف على البقيع كله وما والاه من الأجنة وحدائق النخل. ويكون جبل أحد الذي هو أحد جبال الجنة قبال وجهه. وما كان ينغص علينا فيه إلا كثرة النخاولة الى ذلك المحل ...

«وللنخاولة عادة في كل يوم الخميس غالباً. يأتون الى المشهد من أول النهار

ويطبخون هناك طعاماً كثيراً ويجتمعون رجالاً ونساء بأولادهم. وفي الغالب يأتون لختان أولادهم فإن من له ولد يريد ختانه لا يختتنه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان. وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد زيارة واطعام طعام ولا يحضر معهم غيرهم وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة واللحم»[٨].

والعقيق، متنزه المدينة وملهاها ورد ذكره كثيراً على ألسنة الشعراء. فمن ذلك قول أعرابي:

أيا نخلتي بطن العقيق امانعي ... جنى النخل والتين انتظاري جناكما
لقد خفت أن تنعتاني بطائل، ... وأن تمنعاني مجتنى ما سواكما
لو أن أمير المؤمنين على الغنى ... يحدث عن ظليكما لاصطفاكما

زوجت أعرابية ممن يسكن عقيق المدينة وحملت الى نجد فقالت:

اذا الريح من نحو العقيق تنسمت ... تجدد لي شوق يضاعف من وجدي
إذا رحلوا بي نحو نجد وأهله ... فحسبي من الدينا رجوعي الى نجدي

وقد وصف ابن بطوطة مسجد رسول الله في المدينة بعبارة انيقة شيقة تليق بالمكان، قال:

«المسجد العظيم مستطيل، تحفّ به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل. ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة المقدسة، (صلوات الله وسلامه على ساكنها) في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم. وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان. وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة، هو قبالة الوجه الكريم. وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدبرين القبلة، فيسلمون، وينصرفون يميناً الى وجه أبي بكر الصديق. ورأس أبي بكر (رضي الله عنه) عند قدمي رسول الله ﷺ. ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب. ورأس عمر عند كتفي أبي بكر (رضي الله عنهما). وفي الجوف من الروضة المقدسة (زادها الله طيباً)، حوض صغير مرخّم، في قبلته شكل محراب، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليماً)، ويقال أيضاً: هو قبرها والله أعلم»[٩].

الهوامش

(١) ياقوت، ج ٥، ص ٨٣.
(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٢٤، ج ١، ص ١٢٣ـ١٢٥.

(٣) القسطلاني، شهاب الدين: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، القاهرة، مطبعة مصطفى شاهين، ١٢٨١ هـ، ج ٢، ص ٥١٠.
(٤) ابن جبير، ص ١٦٧ـ١٦٨.
(٥) أمين، أحمد: فجر الاسلام، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠، ص ١٧٥ـ١٧٦.
(٦) جبور: عمر بن ابي ربيعة، ج ١، ص ٩٤.
(٧) نفس المكان، ج ٢، ص ١٩٤.
(٨) بلاشير: منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢، ص ٣٧١ـ٣٧٣.
(٩) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة (١٩٣٤)، ص ٩٠ـ٩١.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية